الباب الثامن عشر

فردوس الآلهة

لم تبلغ العقيدة الدينية من القوة أو الأهمية فى أى قطر من أقطار الأرض ما بلغته فى الهند ؛ فلئن أباح الهنود لحكومات أجنبية أن تقوم عليهم مرة بعد مرة ، فبعض السبب فى ذلك هو أنهم لم يأبهوا كثيراً من ذا عسى أن يحكمهم أو أن يستغلهم — فسواء أكان هؤلاء من بنى وطنهم أم من الأجانب — ذلك لأن الأمر الخطير فى رأيهم هو الدين ، لا السياسة ؛ الروح لا البدن ، هو الحيوات الآتية التى لا نهاية لعددها ، لا هذه الحياة العابرة ؛ وإن قوة الدين وتمكنها من أقوى الرجال بأساً لتظهر جلية فى اصطناع « أشـــوكا » حياة القديسين ، وفى إقبال « أكبر » على الديانة الهندية إقبالا كاد يكون تاماً ؛ وها نحن أولاء فى عصرنا هذا نرى أن من وَحَّد أجزاء الهند أمة واحدة رجل أقرب إلى القديسين منه إلى رجال السياسة .

الفصل الأول

الشطر الثانى من تاريخ البوذية

البوذية فى أوجها — البلاغان — « ماهايانا » — البوذية والرواقية والمسيحية — تدهور البوذية — انتشارها فى سيلان وبورما ، وتركستان ، وتبت ، وكمبوديا ، والصين ، واليابان

بلغت البوذية أوج رفعتها فى الهند بعد موت « أشوكا » بمائتى عام ؛ وقد كانت الفترة التى ارتفعت فيها البوذية من « أشوكا » إلى « هارشا » فترة صعود بمعان كثيرة ، صعود فى الدين والتعليم والفن : غير أن البوذية التى سادت لم تكن بوذية بوذا ؛ والأقرب إلى الصواب أن نقول فى وصفها إنها بوذية تلميذه الثائر « ضجاذا » الذى قال للرهبان عند سماعه بموت أستاذه : « كفى ياسادة ! كفّوا عن البكاء ، هذا يجدر بكم وهذا لا يجدر ، أما الآن ففى مقدورنا أن نصنع ما شاء لنا هوانا ، وأما ما لا يصادف من نفوسنا هوى ، فلن يلزمنا أحد على أدائه »(١) .

وأول ما أوحت لهم حريتهم أن يصنعوه هو أن ينشقوا أحزاباً ؛ فلم يمض على موت بوذا قرنان من الزمان ، حتى انقسم تراثه ثمانية عشر مذهباً متبايناً فأما أتباع البوذية فى جنوب الهند وجزيرة سيلان ، فقد استمسكوا حيناً بمذهب صاحب العقيدة فى بساطته وصفائه ؛ وقد أطلق على هذه الشعبة من مذهبه فيما بعد اسم « هنايانا » ومعناها « البلاغ الأصغر » ؛ فقد عبدوا بوذا باعتباره معلماً عظيما ، لا إلها ؛ وكان كتابهم المقدس هو النصوص المكتوبة باللغة « البالية » التى تبسط العقيدة فى صورتها القديمة ؛ وأما فى الأرجاء الشمالية من الهند والتبت ومنغوليا والصين واليابان ، فالبوذية التى سادت هى التى يطلق عليها اسم « ماهايانا » ومعناها « البلاغ الأكبر » الذى رسم حدوده ونشر

دعوته « مجلس كانيشكا » ؛ فأعضاء هذا المجلس ، وهم من اللاهوتيين الموهوبين (من الوجهة السياسية) قد أعلنوا ألوهية بوذا وأحاطوه بالملائكة والقديسين ، واصطنعوا تقشف « اليوجا » الذى عُرف فى « پاتانجالى » وأصدروا باللغة السنسكريتية مجموعة جديدة من المراسيم المقدسة التى على الرغم من قبولها بعد حين قصير للشقشقة الميتافيزيقية والاسكولائية إلا أنها قد أعلنت وأيدت عقيدة دينية أقرب إلى نفوس الناس من الصورة السوداء المتشائمة المتزمتة التى عُرفت فى « شاكيا مونى » .

كان مذهب « ماهايانا » بوذية خففت من حدتها آلهة وطقوس وأساطير برهمية ، ولاءمت بين نفسها وبين حاجات قبائل التتار فى « كوش » والمنغول فى التبت ، الذين بسط عليهم « كانشكا » سلطانه ، فقد صور ذلك المذهب جنة فيها بوذيون كثيرون ، كان أحبهم إلى عامة الناس « أميدا بوذا » المخلص ؛ وهذه الجنة وجهنم التى تقابلها كانتا ثواباً أو عقاباً لما يأتيه الناس على هذه الأرض من خير أو شر ، وهذان العاملان الوادعان كان لهما أثر فى تحويل بعض جنود الملك من رقابة سلوك الناس إلى خدمات أخرى ؛ وأعظم القديسين فى هذا اللاهوت الجديد هى فئة « بوذا بساتوا » ومعناها « بوذا المستقبل » الذين امتنعوا باختيارهم عن القيام بالنرڤانا (ومعناها هنا التخلص من العودة إلى ولادة جديدة) التى كانت من حقهم وفى مقدورهم ، وذلك لكى يولدوا فى حياة بعد حياة ، فيساعدوا غيرهم من الناس فى هذه الدنيا فى الاهتداء إلى سواء السبيل(*) وهؤلاء القديسون — مثلهم مثل نظائرهم فى مسيحية البحر الأبيض المتوسط — سرعان ما ظفروا بحب الناس لهم حتى كان عبادهم والمعجبون بهم من رجال الفن يزحمون بهم وبتماثيلهم مدافن العظماء ؛ وازدهرت فى البوذية كما ازدهرت فى مسيحية العصور الوسطى — بل لعلها ظهرت فى

---

(١) فى كتاب من «البورانا» أسطورة نمودجية عن ملك كان جديراً بالجنة لكنه آثر البقاء فى جهنم ليواسى المعذبين ، وأبى أن يغادرها حتى أطلق سراح المغضوب عليهم جميعاً(٢) .

البوذية فى تاريخ أسبق(*) ــ قدسية الآثار الباقية من السلف ، واستخدام الماء المقدس ، والشموع ، والبخور والمسبحة ، والثياب الكهنوتية ، ولغة الكهنوت الميتة ، والرهبان والراهبات وقص الشعر والفردية مما تقتضيه حياة الأديرة والاعتراف والصيام أياماً معينة ، وتدشين القديسين والتطهير والصلاة والدعاء للموتى : ولقد أصبح كتاب « ماهايانا » بالقياس إلى « هنايانا » أى البوذية الأولى ما كانت الكاثوليكية بالنسبة إلى الرواقية والمسيحية الأولى ، فقد أخطأ بوذا ــ كما أخطأ لوثر ــ فى ظنه أن شعائر الطقوس الدينية العلمية يمكن أن تحل محلها المواعظ والدروس الأخلاقية ، وما أقرب الشبه بين نجاح البوذية حين امتلأت بالأساطير والمعجزات والاحتفالات والقديسين الذين يتوسطون بين الأرض والسماء بالنجاح الذى لقيته الكاثوليكية قديماً وحاضراً ، لما فيها من زخرف وتمثيل ، وانتصارها على المسيحية الأولى والبروتستنتية الحديثة فى بساطتها الخالية من كل زخرف..

وإيثار عامة الناس لتعدد الآلهة والمعجزات والأساطير ، هذا الإيثار نفسه الذى قضى على بوذية بوذا ، قضى كذلك فى نهاية الأمر على بوذية « البلاغ الأكبر » نفسها فى الهند ، ذلك لأن البوذية ــ ودعنا هاهنا نتحدث بحكمة المؤرخ التى تشرق بعد فوات الحوادث ــ إذا كانت لا تأخذ كل هذا الذى أخذته من الديانة الهندية ومن أساطيرها وطقوسها وآلهتها ، فما كان ليمضى طويل وقت قبل أن تنمحى الفوارق بين الديانتين ولا يبقى من مميزات الواحدة من الأخرى إلا قليل جد قليل ؛ وإذن تمتص إحداهما الأخرى شيئاً فشيئاً ؛ والتى يتاح لها أن تطغى على الأخرى هى التى تكون أعمق الديانتين جذوراً

(*) يقول برجسون : « كانت البوذية أسبق من الكنيسة الرومانية بخمسة قرون فى ابتكار واصطناع الحفلات والمراسم المشتركة بين الديانتين »(٣) وقد بين « إدمندز » بالتفصيل ما بين كتب البوذية المقدسة وإنجيل المسيحية من شبه عجيب(٤) ، ومع ذلك ، فعلمنا بنشأة هذه العادات والعقائد يبلغ من الإبهام حداً لا يجيز لنا أن نصل إلى نتائج إيجابية فيما يختص بأسبقية فريق على فريق.

وأقربهما إلى نفوس الناس وأكثرهما مالا وأعزهما سنداً سياسياً ؛ لهذا أخذت الخرافة — ولعلها أن تكون من جنسنا البشرى بمثابة دماء الحياة — أخذت تتدفق من العقيدة الأقدم إلى العقيدة الأحدث تدفقاً سريعاً ، حتى رأينا الظواهر الجنسية الانفعالية نفسها التى كانت من طقوس العقائد « الشاكتية » تلتمس لنفسها مكاناً فى طقوس البوذية ، واستعاد البراهمة فى صبر ودأب نفوذهم ورعاية السلطان لهم شيئاً فشيئاً ، وأخيراً جاء نجاح الفيلسوف الشاب « شانكارا » فى استعادة الكلمة العليا لكتب القيدا ، وجعلها أساساً للتفكير الهندى ، بمثابة الخاتمة لزعامة البوذيين العقلية فى الهند .

وجاءت الضربة القاضية من خارج ، وكانت البوذية نفسها هى التى هيأت لهذه الضربة سبيلها ، على وجه من الوجوه ، ذلك أن حسن السمعة التى كان يتمتع بها أتباع بوذا ، واسمهم « سانغا » ، قد اجتذب إلى تلك الفئة — بعد عهد أشوكا — صفوة أهل « مجازا » وبهذا قضى على خيرة دماء القوم أن تفنى فى طائفة من رجال الدين لا تتزوج ولا تجاهد فى الحياة ، فشكا بعض المحبين لوطنهم ، حتى فى أيام بوذا نفسه ، من أن الراهب « جوتاما » لا يسمح للآباء أن ينسلوا الأبناء ، ويؤدى بالأسَر إلى الانقراض(٥) ؛ وكان من نتائج انتشار البوذية ونظام الأديرة فى السنة الأولى من التاريخ المسيحى ، أن امتصت من الهند عصارة الرجولة ، وتآمر ذلك العامل مع عامل الانقسام فأدى العاملان إلى فتح أبواب الهند للغزو الخارجى بغير عناء ؛ ولما جاء العرب وأخذوا على أنفسهم أن ينشروا وحدانية بسيطة رواقية النزعة ، نظروا فى ازدراء إلى الرهبان البوذيين الكسالى الذين يفتحون أيديهم للرشوة ويتجرون بالمعجزات ، وحطموا الأديرة وقتلوا ألوف الرهبان ، ونَفَّروا كلَّ حريص على حياته من نظام الرهبنة فى الدير ، فأما من أفلتوا من يد القتل من هؤلاء الرهبان ، فقد عادوا واندمجوا فى الديانة الهندية التى كانت الأرومة الأولى

لهم ؛ وفتحت هذه الديانة القديمة الأصيلة صدرها تستقبل هؤلاء الزنادقة التائبين، وهكذا « قتلت البرهميةُ البوذية بضمة أخوية »(٦) .

ولا عجب فقد كانت البرهمية دائماً متسامحة ، تجادل البوذية وغيرها من مئات المذاهب إبان ارتفاعها وسقوطها ، بل قد تطيل معها الجدال ، لكنك لن تجد فى تاريخها كله مثلا واحداً للاضطهاد ؛ بل الأمر على نقيض ذلك ، إذ ترى البرهمية قد يسَّرت سبيل العودة لهؤلاء الخارجين عليها بأن اعترفت ببوذا إلها (اعتبرته مجسداً للإله ڤشنو) وأقلعت عن التضحية بالحيوان ، وقبلت فى صميم طقوسها مذهب البوذيين فى تقديس حياة الحيوان بأسره ، وهكذا أخذت البوذية تختفى فى هدوء وسلام من الهند ، إبان خمسة قرون كانت خلالها نهباً لعوامل التدهور البطىء(*) .

لكنها فى ذلك الوقت نفسه كانت تكسب لنفسها كل ما عدا الهند من العالم الأسيوى تقريباً ، فانتشرت أفكارها وأدبها وفنها فى سيلان وشبه جزيرة الملايو فى الجنوب ، وفى التبت وتركستان فى الشمال ، وفى بورما وسيام وكمبوديا والصين وكوريا واليابان فى الشرق ، وعلى هذا النحو امتصت كل هذه الأصقاع — ما عدا الشرق الأقصى — ما استطاعت امتصاصه وهضمه من المدنيَّة ، بنفس الطريقة التى امتصت بها أوروبا وروسيا الحضارة من الرهبان الرومانيين والبيزنطيين فى العصور الوسطى ؛ فمعظم هذه الأمم قد بلغ ذروة ثقافته بحافز من البوذية ، ولقد لبثت « أنورا ذاپورا » فى سيلان منذ عهد أشوكا حتى انحلال البوذية فى القرن التاسع ، إحدى المدن الكبرى فى العالم الشرقى ، وظل الناس هنالك ألفى عام يعبدون شجرة التين المقدسة عند

(*) عدد البوذيين اليوم فى الهند نفسها ثلاثة ملايين ، أى واحد فى المائة من السكان .

البوذيين ، وكان المعبد القائم على قمة جبال كاندى كعبة يحج إليها مائة وخمسون مليوناً من البوذيين فى آسيا(*) .

ولعل البوذية فى بورما أخلص ما بقى من ألوان البوذية من الشوائب الدخيلة وكثيراً ما يدنو رهبانها من المثل الأعلى الذى ضربه بوذا ؛ واستطاع أهل بورما البالغ عددهم ثلاثة عشر مليوناً من الأنفس أن يبلغوا بفضل تعاليم أولئك الرهبان مستوى من العيش أعلى مما فى الهند بدرجة ملحوظة(٧) ؛ وكشف « سڤن هيدن » و « أورل شتاين » و « پيلوت » من جوف الرمال فى بلاد التركستان مئات من المخطوطات البوذية وغيرها من شواهد الثقافة التى ازدهرت هناك منذ عهد « كانشكا » حتى القرن الثالث عشر الميلادى .

وحدث فى القرن السابع من تاريخنا المسيحى أن أقام المحارب المتنوّر « سترونج — تسان جامپو » حكومة قادرة فى التبت وضم إليها ينپال ، وبنى مدينة « لهاسا » لتكون عاصمة له ، وهيأ لها طريق الغنى بجعلها محطاً وسطاً فى التجارة بين الصين والهند ، ودعا طائفة من الرهبان البوذيين من الهند لينشروا البوذية والتعليم فى شعبه ، وعندئذ ترك الحكم أربعة أعوام أنفقها فى تعلم القراءة والكتابة ؛ فكأنما كان فاتحة عهد ذهبى فى بلاد التبت ، فأقيمت آلاف الأديرة فى الجبال وعلى النجد الفسيح ، ونُشر كتابٌ تشريعىٌّ يضم الكتب البوذية ، ويقع فى ثلاثة وثلاثين وثمانمائة مجلد ، حفظت للعلم الحديث كثيراً من أحوال هذه الكتب التى كانت قد ضاعت أصولها الهندية منذ زمن طويل(٨) ، وهاهنا فى هذه الصومعة التى أغلقت أبوابها دون العالم بأسره ، راحت البوذية تتطور فى شبكة معقدة من الخرافات والرهبنة والكهنوت ، لا ينافسها فى ذلك سوى

(*) يحتوى كاندى على « ناب بوذا » المشهور — وطوله بوصتان ، وقطره بوصة — وهو محفوظ فى وعاء مرصع بالجواهر ، ومستور عن أعين الناس فى حرص شديد ، وله موسم يحملونه فيه فى موكب رصين يجتذب البوذيين من كل بقاع الشرق ، وعلى جدران المعبد تصاوير تمثل بوذا الوديع وهو يقتل الأشرار فى جهنم ؛ وهكذا تدكنا حيوات العظماء كيف تتحول طبائعهم بعد موتهم تحولا ليس لهم يد فيه .

أوربا فى أوائل عصورها الوسطى : ولا يزال « دالاى لاما » (أى الكاهن الشامل لكل شىء) الذى اختفى فى دير پوتالا العظيم الذى يطل على مدينة لهاسا ، موضع عقيدة عند أهل التبت ، بما تنطوى عليه نفوسهم من السذاجة الطيبة ، بأنه تجسيد حى « لبوذا المستقبل » (بوذا المنتظر[٩]) ؛ وفى كمبوديا والهند الصينية تعاونت البوذية مع الديانة الهندية فى تخطيط الإطار الذى قامت عليه روائع الفن فى عصر هو من أغنى العصور فى تاريخ الفن الشرقى ؛ وهكذا ترى البوذية — مثل المسيحية — قد ظفرت بأعظم انتصاراتها خارج الأرض التى أنبتتها ، وإنما ظفرت بتلك الانتصارات دون أن تريق نقطة واحدة من دماء .

الفصل الثانى

الآلهة الجديدة

الديانة الهندية – براهما ، فشنو ، شيفا – كرشنا – كالى
الآلهة الحيوانية – البقرة المقدسة – تعدد الآلهة والوحدانية

لم تكن الديانة الهندية التى حلت محل البوذية ديانة واحدة ، كلا ولا كانت مقتصرة على كونها عقيدة دينية ، بل كانت خليطاً من عقائد وطقوس لا يشترك القائمون بها فى أكثر من أربع صفات ؛ فهم يعترفون بنظام الطبقات وبزعامة البراهمة ، وهم يقدسون البقرة باعتبارها تمثل الألوهية على نحو تمتاز به من سواها ، وهم يقبلون قانون « كارما » وتناسخ الأرواح ، وهم يضيفون إلى آلهتهم الجديدة آلهة الفيدات ؛ ولقد كان بعض هذه العقائد أسبق من عبادة الطبيعة التى جاءت بها الفيدا ، كما ظلت قائمة بعد زوال تلك العبادة ، وأما بعضها الآخر فقد نشأ من أن البراهمة كانوا يغضون أبصارهم عن ضروب من الطقوس والآلهة والعقائد لم ينص عليها كتابهم المقدس ، بل تناقضه روح الفيدا مناقضة ليست باليسيرة ؛ فأتيحت الفرصة لتلك العقائد أن تنضج فى وعاء الفكر الدينى عند الهنود ، ومضت فى نضجها ذاك حتى فى الفترة العابرة التى ارتقت فيها البوذية إلى مكان السيادة العقلية فى البلاد .

كان آلهة العقيدة الهندية يتميزون بكثرة أعضائهم الجسدية التى يمثلون بها على نحو غامض قدرتهم الخارقة فى العلم والنشاط والقوة ؛ « فبراهما » الجديد كان له أربعة وجوه ، وكان لـ « كارتكيا » ستة وجوه ، ولـ « شيفا » ثلاثة أعين ولـ « هندرا » ألف عين ، وكل إله عندهم تقريباً كان له أربع أذرعة(١٠) وعلى رأس هذه المجموعة الجديدة من الآلهة « براهما » الذى كان له من الشهامة ما أبعده عن الميل مع الهوى ، وهو سيد الآلهة المعترف له بتلك السيادة ، على الرغم

من أنه مُهمَل في شعائر العبادة الفعلية إهمال الملك الدستوري في أوربا الحديثة ؛ و« براهما » و « شيفا » و « فشنو » هم الثلاثة الآلهة (لا الثالوث) الذين يسيطرون على الكون ، وأما « فشنو » فهو إله الحب الذي كثيراً ما ينزل إنساناً ليتقدم بالعون إلى بني الإنسان ؛ وأعظم من يتجسد فيه « فشنو » هو « كِرِشْنا » ، وهو في صورته « الكرشنية » هذه ، قد ولد في سجن وأتى بكثير من أعاجيب البطولة والغرام ، وشفى الصُّم والعمى ، وعاون المصابين بداء البرص ، وذاد عن الفقراء ، وبعث الموتى من قبورهم ؛ وكان له تلميذ محبب إلى نفسه ، وهو « أرْجونا » ، وأمام « أرجونا » تبدلت خِلقة « فشنو » حالا بعد حال ؛ ويزعم بعض الرواة أنه مات مطعوناً بسهم ، ويزعم آخرون أنه قُتل مصلوباً على شجرة ؛ وهبط إلى جهنم ثم صعد إلى السماء ، على أن يعود في اليوم الآخر ليحاسب الناس أحياءهم وأمواتهم(١١) .

الحياة ، بل الكون كله ، لها في رأي الهندي ثلاثة وجوه رئيسية : الخلق ، والاحتفاظ بالمخلوق ، ثم الفناء ؛ ومن ثمّ كان للألوهية عنده ثلاث صور : براهما الخالق ، وفشنو الحافظ . وشيفا المدمِّر ؛ تلك هي « الأشكال الثلاثة » التي يقدسها الهنود أجمعين ما عدا الجانتيين منهم(*) ، والناس منقسمون بحبّهم طائفتين : إحداهما تميل إلى ديانة فشنو ، والأخرى إلى ديانة شيفا ؛ وكلتا العقيدتين بمثابة الجارتين المسالمتين ، بل قد تتقدم كلتاهما بالقرابين في معبد واحد(١٣) ، والحكماء من البراهمة — تتبعهم الأكثرية العظمى من سواد الناس — تكرم الإلهين معاً بغير تمييز لأحدهما ، أما الفشنيون الأتقياء فيرسمون

(*) في تعداد سنة ١٩٢١ ، ينقسم الناس من حيث ديانتهم كما يلي :
الديانة الهندوسية ٢١٦,٢٦١,٠٠٠ ؛ والسيخ ٣,١٣٩,٠٠٠ ؛ والجانتيون ١,١٧٨,٠٠٠ والبوذية ١١,٥٧١,٠٠٠ (تقريبا كلهم من أهل بورما وسيلان) ؛ والزرادشتية (أو الفارسية) ١٠٢,٠٠٠ ؛ والمسلمون ٦٨,٧٣٥,٠٠٠ ، واليهود ٢٢,٠٠٠ ؛ والمسيحيون ٤,٧٥٤,٠٠٠ (أغلبهم أوروبيون)(١٢) .

على جباههم كل صباح بالطين الأحمر علامة قشنو ، وهى شوكة ذات أسنان ثلاث ، وأما الشيڤيون المخلصون لعقيدتهم فيرسمون ثلاثة خطوط أفقية على جباههم برماد من روث البقر ، أو يلبسون « اللنجا » — رمز عضو الذكورة — ويربطونه إلى أذرعتهم أو يعلقونه حول أعناقهم(١٤) .

وعبادة « شيڤا » هى من أقدم وأعمق وأبشع العناصر التى منها تتألف الديانة الهندية ؛ فيقدم لنا « سير چون مارشل » « دليلا لا يأتيه الباطل » على أن عقيدة « شيڤا » كانت موجودة فى « مُوهِنْجُو . دارو » ، متخذة أحياناً صورة شيڤا ذى الرؤوس الثلاثة ، وأحياناً أخرى صورة أعمدة حجرية صغيرة ، يزعم لنا أنها ترمز لعضو الذكورة على نحو ما ترمز له عندهم بدائلُها فى العصر الحديث ؛ وهو يخلص من ذلك إلى نتيجة هى أن « العقيدة الشيڤية أقدم عقيدة حية فى العالم كله(١٥) »(*) .

واسم الإله — أعنى كلمة « شيڤا » — لفظة أريد بها التخفيف من بشاعة الإله ، فالكلمة شيڤا معناها الحرفى « العطوف » مع أن شيڤا فى حقيقة الأمر إله القسوة والتدمير قبل كل شىء آخر ؛ هو تجسيد لتلك القوة الكونية التى تعمل واحدة بعد أخرى ، على تخريب جميع الصور التى تتبدى فيها حقيقة الكون — جميع الخلايا الحية وجميع الكائنات العضوية ، وكل الأنواع ، وكل الأفكار وكل ما أبدعته يد الإنسان ، وكل الكواكب ، وكل شىء ؛ ولم يسبق الهنود شعب قط فى شجاعتهم فى مواجهة الحقيقة التى هى عدم ثبات الأشياء على صورها ووقوف الطبيعة من كل شىء موقف الحياد ، مواجهة صريحة ؛ ولم يسبقهم شعب قط فى اعترافهم اعترافاً واضحاً بأن الشر يتوازن مع الخير ، والهدم

(*) ومع ذلك فلا تجد اسم « شيڤا » — كما لا تجد اسم براهما نفسه — فى كتاب (رج-ڤيدا) ويذكر لنا « پاناجالى » النحوى صوراً شيڤية ومريدين شيڤيين حوالى سنة ١٥٠ قبل الميلاد(١٦) .

يساير الخلق خطوة خطوة ، وأن ولادة الأحياء يأسرها جريمة كبرى عقابها الموت ؛ فالهندى الذى تعذبه آلاف العوامل من عثرة الحظ والآلام ، يرى فى تلك الألوان من التعذيب أثراً ينم عن قوة نشيطة يمتعها — فيما يظهر — أن تحطم كل ما أنتجه براهما ، وهو القوة الخالقة الطبيعية ؛ إن « شيفا » ليطرب راقصاً إذا ما سمع نغمة العالم فأدرك منها عالماً لا ينى يتكون وينحل ويعود إلى التكون من جديد .

ولكن كما أن الموت عقوبة الولادة ، فكذلك الولادة تخيب لرجاء الموت ؛ فالإله نفسه الذى يرمز للتدمير ، يمثل كذلك للعقل الهندى تلك الدفعة الجارفة نحو التناسل الذى يتغلب على موت الفرد باستمرار الجنس ؛ وهذه الحيوية الخلاقة الناسلة (شاكتى) التى يبديها شيفا — أو الطبيعة — تتمثل فى بعض جهات الهند ، وخصوصاً فى البنغال ، فى صورة زوجة شيفا ، واسمها « كالى » (بارفاتى ، أو أوما أو درجا) وهى موضع عبادة فى عقيدة من لعقائد الكثيرة التى تأخذ بمذهب « الشاكتى » هذا ؛ ولقد كانت هذه العبادة — حتى القرن الماضى — وحشية الطقوس كثيراً ما تتضمن فى شعائرها تضحية بشرية ، ولكن الإلاهة اكتفت بعدئذ بضحايا الماعز[١٧] : وهذه الإلاهة صورتها عند عامة الناس شبح أسود بفم مفغور ولسان متدل ؛ تزدان بالأفاعى وترقص على جثة ميتة ؛ وأقراطها رجال موتى ، وعقدها سلسلة من جماجم ، ووجهها وثدياها تلطخها الدماء[١٨] ومن أيديها الأربعة يدان تحملان سيفاً ورأساً مبتوراً ، وأما اليدان الأخريان فممدودتان رحمة وحماية : لأن « كالى — پارفالى » هى كذلك إلاهة الأمومة كما أنها عروس الدمار والموت ؛ وفى وسعها أن تكون رقيقة الحاشية كما فى وسعها أن تكون قاسية ، وفى مقدورها أن تبسم كما فى مقدروها أن تقتل ؛ ولعلها كانت ذات يوم إلهة أما فى سومر ، ومن ثم جاءت إلى الهند قبل أن تتخذ هذا الجانب البشع من جانبيها[١٩] ولا شك أنها هى وزوجها قد اتخذا أبشع صورة ممكنة لكى يلقيا الرعب فى نفوس الرعاديد من

عبادهما فيحتشموا ، أو قد تكون هذه البشاعة كلها قد أريد بها أن يلقى الرعب في نفوس العباد فيجودوا بالعطاء للكهنة(*) .

تلك هى أعظم آلهة الهندوسيين ، لكنا لم نذكر إلا خمسة من ثلاثين مليوناً من الآلهة تزدحم بها مقبرة العظماء فى الهند ؛ ولو أحصينا أسماء هاتيك الآلهة لاقتضى ذلك مائة مجلد ؛ وبعضها أقرب فى طبيعته إلى الملائكة ، وبعضها هو ما قد نسميه نحن بالشياطين ، وطائفة منها أجرام سماوية مثل الشمس ، وطائفة منها تمائم مثل « لاكشمى » (الهة الحظ الحسن) ، وكثير منها هى حيوانات الحقل أو طيور السماء ؛ فالهندى لا يرى فارقاً بعيداً بين الحيوان والإنسان ، فللحيوان روح كما للإنسان ، والأرواح تمضى دواماً متنقله من بنى الإنسان إلى بنى الحيوان ، ثم تعود إلى بنى الإنسان مرة أخرى ؛ وكل هذه الصنوف الإلهية قد نسجت خيوطها فى شبكة واحدة لا نهاية لحدودها ، هى « كارما » وتناسخ الأرواح ؛ فالفيل مثلا قد أصبح الإله « جانيشا » واعتبروه ابن شيفا(٢١) ، وفيه تتجسد طبيعة الإنسان الحيوانية ، وكانت صورته فى الوقت نفسه تتخذ طلسما يقى حامله من الحظ السيىء : كذلك كانت القردة والأفاعى مصدر رعب ، فكانت لذلك من طبيعة الآلهة ؛ فالأفعى التى تودى عضةُ واحدة منها إلى موت سريع ، واسمها « ناجا » كان لها عندهم قدسية خاصة ؛ وترى الناس فى كثير من أجزاء الهند يقيمون كل عام حفلا دينياً تكريماً للأفاعى ، ويقدمون العطايا من اللبن والموز لأفاعى « الناجا » عند مداخل جحورها(٢٢) ؛ كذلك أقيمت المعابد تمجيداً للأفاعى كما هى الحال فى شرق ميسور ، وهناك فى هذه المعابد تسكن جموع زاخرة من الزاحف ، ويقوم

(*) ومع ذلك فكهنة العقيدة الشيفية يندر أن يكونوا من البراهمة ، ومعظم البراهمة ينظرون نظرة ازدراء وأسف إلى المذهب « الشاكتى »(٢٠) .

الكهنة على إطعامها والعنـــاية بها[٢٣] ؛ وللتماسيح والنمور والطواويس والببغاوات ، بل والفئران حقها من العبادة[٢٤] .

وأكثر الحيوان قدسية عند الهندى هى البقرة ، فترى تماثيل الثيرة مصنوعة من كل مادة وفى شتى الأحجام ، تراها فى المعابد والمنازل وميادين المدن ؛ وأما البقرة نفسها فأحب الكائنات الحية جميعاً إلى الهنود ، ولها مطلق الحرية فى ارتياد الطرقات كيف شاءت ، وروثها يستخدم وقوداً أو مادة مقدسة يتبركون بها ، وبولها خمر مقدس يطهر كل ما فى الجسم من نجاسة فى الظاهر والباطن ؛ ولا يجوز للهنـــدى تحت أى ظرف أن يأكل لحمها أو أن يصطنع من جلدها لباساً يرتديه — فلا يصنع منه غطاء للرأس ولا قفازاً ولا حذاء ؛ وإذا ماتت البقرة وجب دفنها بجلال الطقوس الدينية[٢٥] ، ولعل السياسة الحكيمة هى التى رسمت فيما مضى هذا التحريم احتفاظاً للزراعة بحيوان الجر حتى يسد حاجة السكان الذين يتكاثرون[٢٦] ، وقد بلغ عدد البقر اليوم ربع عدد السكان[٢٧] ووجهة نظر الهندى فى ذلك هى أنه ليس أبعد عن المعقول أن تشعر بالحب العميق للبقرة والمقت الشديد لفكرة أكلها ، من أن تُكنّ أمثال هذه المشاعر للحيوانات المستأنسة من قطط وكلاب ، لكن الذى يبعث على السخرية المرة فى الأمر هو عقيدة البراهمة بأن الأبقار لا يجوز ذبحها قط ، وأن الحشرات لا يحل إيذاؤها قط ، وأن الأرامل من النساء ينبغى أن يحرقن أحياء ؛ فحقيقة الأمر هى أن عبادة الحيوان قد ظهرت فى تاريخ الشعوب كلها ، فإن جاز للإنسان أن يؤله الحيوان إطلاقاً ، فللبقرة الرحيمة الهادئة حقها فى هذا التقديس ؛ ولا يجوز لنا أن نغلو فى كبريائنا حين تأخذنا الدهشة لهذه المعارض الحيوانية من آلهة الهنود ، فلنا كذلك إبليس عدن فى صورة الحية ، والثور الذهبى فى العهد القديم من الإنجيل ، والسمك المقدس فى سراديب الموتى ، وحَمَل الله الوديع .

إن سر تعدد الآلهة هو عجز العقل الساذج عن التفكير فيما ليس

مشخصاً ، فأيسر عليه أن يفهم الأشخاص من أن يعقل القُوَى ، وأن يفهم الإرادات من أن يتصور القوانين(٢٨) ، والظن عند الهندى هو أن حواسنا البشرية لا ترى من الحوادث التى تدركها سوى ظاهرها ، ويعتقد أن وراء هذه الظواهر كائنات روحية لا حصر لعددها ، يمكن إدراكها بالعقل لا بالحواس — على حد تعبير « كانت » ؛ ولقد أدى تسامح البراهمة ذو المسحة الفلسفية ، إلى الزيادة من ذخيرة آلهتهم حتى ازدادت كثرة على كثرة ، وذلك أن الآلهة المحليين وآلهة القبائل المختلفة قد صادفت عند الهندى سهلا ومرحباً ، فقبلها وفسّرها بأنها جميعاً تصور جوانب من آلهته الأصلية ؛ فكل عقيدة يُسمح لها بالدخول عندهم إن كان فى مستطاعها أن تدفع الضريبة على ذلك ، حتى كاد كل إله آخر الأمر أن يكون صورة أو صفة أو تجسيداً لإله آخر ، ثم تناول العقل الهندى الرشيد كل هذه الآلهة فدمجها فى إله واحد ، وهكذا تحول تعدد الآلهة إلى عقيدة بوحدة الوجود ، أو شكت عندهم أن تكون توحيداً ، والتوحيد بدوره أوشك أن يكون عندهم واحدية فلسفية ، فكما يتوجه المسيحى الورع بالدعاء إلى العذراء ، أو إلى قديس من آلاف القديسين ، ومع ذلك لا يتحول عن توحيده لله ، بمعنى أنه لا يعترف إلا بإله واحد على أنه ذو الجلال الأسمى ، فكذلك الهندى يتوجه بالدعاء إلى « كالى » أو « راما » أو « كرشنا » أو « جانيشا » دون أن يتطرق إلى ذهنه لحظة واحدة أن هذه آلهة لها السيادة العليا(*) فترى بعض الهنود يتخذ من « ڤشنو » إلها أعلى ، وبعضهم يتخذ من « شيڤا » إلها أعلى ، ويجعل ڤشنو أحد ملائكته ، وإذا وجدت بين الهنود أقلية تعبد « براهما » فما ذلك إلا لأنه مجرد عن التشخص ، ممتنع على الحواس ، بعيد عن الشر ، ولهذا السبب عينه ترى معظم الكنائس فى البلاد المسيحية قد أقيمت تكريماً لمارية أو لأحد القديسين ، وكان على المسيحية أن تنتظر حتى يجيئها ڤولتير فيقيم معبداً لله .

(*) فيما يلى عبارة مقتبسة من التقرير عن تعداد سنة ١٩١٠ ، المرفوع إلى الحكومة البريطانية فى الهند : « إن النتيجة العامة التى انتهيت إليها من البحث هى أن كثرة الهنود الغالبة تعتقد عقيدة راسخة فى كائن واحد أعلى »(٢٩) .

الفصل الثالث

العقـــائد

كتب « بيورانا » — عودة الكون بالتناسخ مرة بعد مرة
تقمص الروح فى عدة أجساد — « كارما » — حيوانها
الفلسفية — الحياة باعتبارها شراً — الخلاص

ويمتزج بهذا اللاهوت المعقد ، مجموعة معقدة من الأساطير فيها التخريف وفيها عمق الفكرة فى آن معاً ، فلما كانت كتب الثيدا قد دفنت فى اللغة التى كتبت بها ، ثم لما كانت فلسفة البراهمة الميتافيزيقية تجاوز حدود أفهام الناس ، فقد نهض « ڤياسا » وآخرون فى مدة تطاولت إلى ألف عام (من ٥٠٠ ق . م إلى ٥٠٠ ب . م) وأنشأوا كتب « پيورانا » — ومعناها القصص القديمة — أنشأوها شعراً فى أربعمائة ألف دوبيت (الدوبيت بيتان من الشعر) يعرضون فيها لعامة الناس حقيقة خلق العالم بصورتها الدقيقة ، وما يطرأ عليه من مراحل الكون والفساد المتعاقبة على فترات دورية ، ونَسَبَ الآلهة ، وتاريخ عصر البطولة ؛ وليست تدعى هذه الكتب لنفسها غالباً أدبياً ولا نظاماً منطقياً ، ولا اعتدالا فى تقدير الأشياء بالأعداد ، من ذلك مثلا أنها تذكر عن الحبيبين « إرڤاشى » و « پوروراڤاس » أنهما قضيا واحداً وستين ألف عام فى سرور وغبطة[٣٠] ؛ لكنها مع ذلك أصبحت للديانة الهندية إنجيلا ثانياً لوضوح لغتها وروعة قصصها وسلامة العقيدة التى تشرحها ، كما أصبحت تلك الكتب للديانة الهندية مستودعاً عظيما لخرافاتها وأساطيرها ، بل وفلسفتها ؛ فهاك على سبيل المثال قطعة من « ڤشنوپورانا » تعبر عن أقدم فكرة جالت برأس الهندى وما فتئت تعاوده على طول الزمن — وأعنى بها الفكرة القائلة بأن استقلال الأفراد فى ذوات منفصل بعضها عن بعض ، وهم ، وأن الحياة كلها حقيقة واحدة :

« جاء « ربهو » بعد ألف عام .
إلى « نداغا » فى مدينته ليزيده علماً .
فرآه خارج المدينة .
فى نفس اللحظة التى كان الملك فيها على وشك الدخول بحشد كبير
من الأتباع ،
رآه واقفاً على مبعدة ، معتزلا بنفسه عن الزحام ،
ذاوى العنق من أثر الصيام ، وكان فى طريقه عائداً من الغابة ومعه
بعض الوقود والكلأ
لما رآه « ربهو » قصد إليه وحيّاه قائلا :
« أيها البرهمى ! فيم وقوفك هاهنا وحيداً ؟ »
فقال « نداغا » : « انظرْ إلى الحشد محيطاً بالملك
الذى يوشك أن يدخل المدينة ، هذا هو علة وقوفى وحيداً »
فقال « ربهو » : « أى هؤلاء يكون الملك ؟
ومن عسى أن يكون الآخرون ؟
أنبئنى فيبدو عليك أنك بالأمر عليم »
فقال « نداغا » : « إن من يركب الفيل الأحمر ، عالياً برأسه كأنه
قمة الجبل
هذ هو الملك ، والآخرون هم تابعوه » .
فقال « ربهو » : « إنك تشير إلى هذين ، إلى الملك والفيل
دون أن تميز بينهما بفاصل
قل لى أين أجد الفاصل بين هذا وذاك ؟
أريد أن أعلم أى هذين هو الملك ، وأيهما يكون الفيل ؟ »
فقال « نداغا » : الفيل أسفل ، والملك من فوقه ،

من ذا الذى لا يعلم علاقة الحامل بالمحمول ؟ »

فقال « ربهو » : « علمنى ذلك فقد أستطيع تعلمه » ؛

ما هذا الذى تشير إليه بقولك « أسفل » وبقولك « فوقه » ؟

فوثب نداغا من فوره على المعلم وخاطبه قائلا :

« هأنذا أعلمك ما أردت أن تتعلمه منى ،

أنا « أعلى » مثل الملك وأنت « أسفل » مثل الفيل ،

وإنما أسوق لك هذا المثل لأعلمك »

فقال ربهو : « إذا كنت فى موضع الملك ، وأنا فى موضع الفيل

فما أزال أطلب منك أن تنبئنى : أيُّنا أنت أيُّنا أنا ؟ »

فما لبث نداغا أن جثا أمامه وأمسك بقدميه وقال :

حقاً إنك « ربهو » أستاذى ...

بجوابك هذا عرفت أنك أنت شيخى قد أتى »

فقال « ربهو » : « نعم ، جئت لأعلمك

لأنك فيما سبق أبديت استعداداً لخدمتى ،

أنا هو « ربهو » قد جئت إليك

وهذا الذى علمتك إياه اختصاراً —

وهو صميم الحقيقة العليا — يتلخص فى نفى الثنائية من الوجود »(*)

وبعد أن فرغ الشيخ « ربهو » من حديثه هذا مع نداغا ، مضى لسبيله

ومن ثم أدار نداغا فكره — مهتدياً بهذا لدرس الرمزى الذى تعلمه —

فركزه كله فى اللاثنائية

(*) وهم يسمون عدم الثنائية بكلمة **Advaitam** ، وتعتبر هذه الكلمة مركز الفلسفة الهندية كلها ، وسنعود إلى ذلك فى فصل تال .

ومنذ ذلك الحين أخذ ينظر فى الكائنات كلها فلا يجد فيها ما يفرّق شيئاً منها عن نفسه

وبهذا شاهد براهما ، وحقق الخلاص الأعظم(٣١) .

فى كتب « پيورانا » هذه ، وفى أمثالها من آثار الهند فى عصورها الوسطى ، تقرأ نظرية عن الكون هى بعينها النظرية التى يقول بها العصر الحديث ؛ فليس هناك خلق بمعنى التكوين بعد العدم ، إنما هو كون يعقبه فساد أبد الدهر ، هو نماء يعقبه ذبول ، دورة بعد دورة ؛ كهذا الذى تراه متمثلا فى كل نبات فى العالم وكل حيوان ؛ والذى يحفظ مراحل هذه السيرة فلا تقف دورتها ، هو براهما — أو إن شئت فقل پراچاپاتى كما يسمى الخالق فى هذه الكتب التى نحن الآن بصددها — براهما هو القوة الروحية التى تفعل ذلك ، ولسنا ندرى كيف بدأ العالم ، إن كانت للعالم بداية ؛ يجوز أن يكون براهما — كما تذهب كتب پيورانا — قد جعل بداية العالم بيضة ثم احتضنها حتى أفرخت ؛ ويجوز أن يكون هذا العالم غلطة عابرة من الصانع ، أو فكاهة رأى فيها قليلا من تسلية(٣٢) ؛ وكل دورة — أو كالپا كما يسمونها — فى تاريخ الكون منقسمة إلى عصور كبرى — ويسمون كل عصر منها ماهايوجا — طول الواحد منها ٤,٣٢٠,٠٠٠ عام ، ثم ينقسم كل « ماهايوجا » إلى أربعة « يوجات » — أى عصور — يطرأ على الجنس البشرى خلالها تدهور تدريجى ؛ ولقد مضت ثلاثة أعصر من « الماهايوجا » — أى العصر الأعظم — الحاضر ، بلغ مداها ٣,٨٨٨,٨٨٨ عام ونحن الآن نعيش فى العصر الرابع — ويسمونه « اليوجا الكالى — ومعناها عصر الشقاء ؛ ومن هذه المرحلة انسلخ ٥٠٣٥ عام ، وبقى منها ٤٢٦,٩٦٥ عام ، وعندئذ يصيب العالم موت من ميتاته الدورية ، بعدها يبدأ براهما يوماً آخر من « أيام براهما » وما يومه إلا « كالپا » أى دورة طولها ٤,٣٢٠,٠٠٠,٠٠٠ عام ؛ وفى كل دورة « كالپية » من هذه الدورات يتطور الكون بفعل العوامل الطبيعية ماراً بالخطوات الطبيعية ، وبفعل العوامل

الطبيعية مارا بالخطوات الطبيعية يعود إلى الانحلال ، وفناء العالم كله لا يقل فى يقينه عن موت فأر ، وليس فناء العالم كله فى نظر الفيلسوف بأخطر من موت الفأر ، وليس هناك غاية نهائية يتحرك نحوها الكون ، أى ليس هناك « تقدم » بل كل ما هناك تكرار لا ينتهى[٣٣] .

وحدث إبان هذه العصور صُغراها وكُبراها أن تحولت بلايين الأنفس من نوع إلى نوع ومن جسم إلى جسم ومن حياة إلى حياة فى دورات من التناسخ تبعث الملل لتكرارها ، فليس الفرد فرداً فى حقيقة أمره ، إنما هو حلقة فى سلسلة الحياة ، وصفحة واحدة من تاريخ نفس من الأنفس ، والنوع من الأحياء ليس فى حقيقة أمره نوعاً قائماً بذاته ، لأن الأنفس الحالّة فى هذه الزهور أو هذه البراغيث ربما كانت أمس ، أو ربما تكون غداً ، أرواحاً من أرواح البشر ، فالحياة كلها واحدة ، وإذن فالإنسان إن هو إلا إنسان إلى حدّ مّا ، لأنه كذلك حيوان ، ولا تزال عالقة به نتف وأصداء من حيواته الدنيا الماضية ، مما يجعله أقرب صلة بالحيوان منه إلى الحكيم من الناس ، إن الإنسان جزء من الطبيعة لا أكثر ، فليس هو من هذه الطبيعة مركزها ولا سيدها[٣٤] ، والحياة الواحدة فى الفرد ليست إلا فصلا واحداً من سيرة نفس واحدة ، وليست هى كل ما تتألف منه هذه النفس ، فكل صورة من صور الأحياء مصيرها التغير ، أما الحقيقة فدائمة وواحدة ، والأبدان الكثيرة التى تحل فيها النفس واحداً بعد واحد ، شبيهة بالأعوام أو بالأيام فى حياة الفرد الواحد ، وقد تعلو بالنفس نحو النماء حيناً أو قد تهبط بها نحو الذبول حيناً آخر ، فكيف يمكن لحياة الفرد الواحد ، وهى على هذه الحالة من القِصَر فى تيار الأجيال المتعاقبة العنيف الجارف ، كيف يمكن أن تشمل على كل ما للنفس الفردة من تاريخ ، أو أن تهيئ لها ما هى جديرة به من

عقاب أو ثواب على شرّها أو خيرها ؟ وإذا فرضنا للنفس خلوداً ، فكيف يجوز لحياة واحدة قصيرة أن تقرر مصيرها إلى الأبد(*) ؟

يقول الهندى إن الحياة لا يمكن فهمها إلا على افتراض أن كل مرحلة من مراحل وجود للنفس تعانى العذاب أو تتمتع بالثواب ، جزاء وفاقاً لما وقع من النفس فى حياة ماضية من رذيلة أو فضيلة ؛ إذ يستحيل على فعل صغير أو كبير ، خيّر أو شرير ، أن يمضى بغير أثر ؛ إن كل شىء لا بد له من أثر يظهر ذات يوم ، ذلك هو قانون « كارما » — ومعناها قانون الفعل — أو قانون المسببية فى دنيا الروح ، وهو أسمى قوانين العالم وأبشعها ، فإذا أقام إنسان العدل ، وكان رحيما دون أن يقترف خطيئة ، فيستحيل أن يجىء جزاؤه فى مرحلة واحدة فانية من مراحل الحياة ، بل يمتد نطاقه إلى حيوات أخرى يولد فيها ليكون ذا مكانة أعلى وحظ أوفر ، لو ظل على فضيلته الأولى ؛ أما إن عاش حياته عيش الرذيلة ، أعيدت ولادته فى حياة تالية متبوذاً أو ابن عِرْس أو كلباً (٣٥)(**) ، وقانون « كارما » هذا — مثل قانون القَدَر عند اليونان — هو فوق الآلهة والبشر معاً لأن الآلهة أنفسهم لا يستطيعون تغيير سننه التى يطّرد فعلها ؛ أو إن شئت فقل ما قاله رجال اللاهوت ، وهو أن « كارما » وإرادة الآلهة أو فعلها ، شىء واحد بذاته(٣٨) ، لكن ليس « كارما » و « القَدَر » بشىء واحد ، لأن « القدر » يتضمن عجز الإنسان عن تقرير مصير نفسه ، أما « كارما » فتجعل الإنسان (إذا أخذنا كل حيواته جملة واحدة) خالق مصير نفسه ؛ ليست الجنة والجحيم بخاتمة ينتهى عندها فعل « كارما » وهو سلسلة الولادات والميتات ؛ نعم إن الروح بعد موت جسدها ، يجوز

(*) إذا سئل الهندى : لماذا لا نتذكر ما مر بنفوسنا وهى فى أبدانها السابقة ، أجاب بأننا كذلك لا نتذكر حوادث الطفولة الأولى ، فكما أننا لا نعلل مرحلة رشدنا إلا على أساس مرحلة الطفولة ، فكذلك لا يمكن تفسير موضعنا ونصيبنا من هذه الحياة الحاضرة إلا على أساس حيوات النفس الماضية .

(**) قد علل أحد الرهبان شهيته بأنه فى حياة سابقة لروحه كان فيلا ، ثم نسى « كارما » أن يغير شهيته لما غير بدنه(٣٦) ، ويعتقدون أن المرأة ذات الرائحة القوية كانت فيما مضى سمكة(٣٧) .

أن ترسل إلى الجحيم لتلقى عذابها على جرم بعينه ، أو أن ترسل إلى الجنة لتنعم بجزاء سريع على فضيلة بذاتها ، لكن يستحيل على روح أن يقيم فى الجحيم ، وقليل من الأرواح هى التى يُسمح لها بالإقامة فى الجنة إلى الأبد ؛ ذلك لأن الروح لا بد لها بعد فترة تقضيها فى الجنة أو الجحيم ، أن تعود إلى الأرض من جديد ، لتنفذ بحياة جديدة ما يقضى به عليها « كارما »(*)

كان هذا المذهب صادقاً من الوجهة البيولوجية إلى حد كبير ؛ فلا ريب فى أننا حقاً تجسيد جديد لأسلافنا ، وسنعود بدورنا فنتجسد من جديد فى أبنائنا ، وعيوب الآباء تهبط على الأبناء إلى حد ما (ولو أنها لا تهبط بالمقدار الذى يفرضه الحامدون الخيرون) حتى ولو بعد أجيال كثيرة ؛ فقد كان « كارما » أسطورة بارعة فى صرف الحيون البشرى عن القتل والسرقة والمماطلة والتقتير فى العطايا ، فضلا عن أنها وسَّعت من نطاق الوحدة الخلقية والشعور بالواجب حتى شمل ذلك النطاق مراحل الحياة كلها ، ومهدت أمام التشريع الخلقى سبيل التطبيق على نطاق أوسع رقعة وأكثر منطقاً مما وجده فى أية حضارة

(*) يعتقد الهنود فى سبع سموات ، إحداها على الأرض ، وبقيتها ترتفع عن الأرض ، على تفاوت الدرجات بينها ؛ وهناك فى عقيدتهم إحدى وعشرون جحيما مقسمة سبعة أقسام ؛ وليس العقاب أبديا ، لكنه أنواع ؛ وإن الوصف الذى يصف به « الأب دبوا » جحيمات الهنود ، لينافس فى بشاعته جحيم دانتى ، وهو — مثله — يصور ما يضطرب به صدر الإنسانية من مخاوف كثيرة وخيال ينزع بالناس نحو إيقاع الأذى . « فمن ألوان العذاب النار والحديد والثعابين والحشرات السامة والحيوانات الكاسرة وسباع الطير ، ومر الشراب والسم والروائح الكريهة ؛ واختصاراً ، تستخدم كل وسيلة ممكنة فى تعذيب المغضوب عليهم ؛ بعضهم ينفذ فى مناخير هم حبل يظلون يساقون به إلى الأبد فوق نصال سكاكين غاية فى الإرهاف وبعضهم يحكم عليهم بالمرور خلال سم الخياط ، وبعضهم يوضعون بين صخرتين مستويتين تضايقهم فما فتسحقانهم دون أن تقتلاهم ؛ وبعضهم تطلق عليهم طيور العقاب الجائعة فتظل تنقر عيونهم بغير انقطاع ؛ وملايين منهم يقضى عليهم بالسباحة الدائمة فى بركة مليئة بسول الكلاب أو مخاط الآدميين »(٤٠)، ويجوز أن تكون هذه العقائد قاصرة على أدنى طبقات الهنود وعلى المتزمتين من رجال اللاهوت ؛ ويسهل علينا التسامح إذا تذكرنا أن جهنمنا — على اختلافها عن جهنم الهنود — ليست متنوعة العذاب فحسب ، بل هى أبدية فوق ذلك .

أخرى ، فالهنود الأخيار لا يقتلون الحشرات إذا وسعهم ذلك ، « وحتى أولئك الذين يتواضعون منهم فى طموحهم الخلقى يعاملون الحيوان معاملتهم لأخوة لهم أدنى شأناً ، لا معاملتهم لكائنات أحط نوعاً سلطهم الله عليها[٤١] » ، وقد فسرت « كارما » للهنود — من الوجهة الفلسفية — كثيراً من الحقائق التى كانت تكون بغيرها غامضة المعنى أو مجحفة إجحافاً يوغر الصدور ، فهذه الفوارق الأزلية التى تفرّق بين أقدار الناس والتى تخيب آمال الناس منذ الأزل فى المساواة والعدل ، وهذه الشرور فى صورها المختلفات التى تُسوِّد وجه الأرض وتصبغ بحمرة الدماء مجرى التاريخ ؛ وهذه الآلام التى تدخل حياة الإنسان مع ولادته ثم تصاحبه حتى وفاته ؛ كل هذه وهذه وتلك بدت معقولة للهندى إذا ما اعتقد فى « كارما » ؛ ذلك لأن هذه الشرور وهذا الظلم وهذه الفوارق المتدرّجة من الخَبَل العقلى إلى النبوغ ، وهذه الدرجات من الفقر والغنى ، كل هذه نتيجة للحيوات الماضية وهى نتيجة لازمة تترتب على فعل قانون ، إن رأيته ظالماً مدى حياة واحدة أو لحظة واحدة ، فستراه أعدل ما تكون القوانين فى نهاية الأمر كله(*) ، فكارما إحدى الوسائل الكثيرة التى ابتكرها الإنسان لنفسه لتعينه على تحمل الشر صابراً ، وعلى مواجهة الحياة متفائلا ، فالمهمة التى اضطلعت بها معظم الديانات وحاولت أداءها هى أن تفسر الشر وأن تشرح للناس نظاماً كونياً يبرر لهم أن يقبلوا الشر جزءاً منه ، قبولا إلاّ يكن مليئاً بالبِشْر ، فحسبه أن يكون مصحوباً بسكينة الفؤاد ، ولما كانت مشكلة الحياة الحقيقية ليست هى آلامها ، لكنها الآلام التى تصادف من لا يستحقونها ، فإن ديانة الهند تخفف من هذه المأساة البشرية بأن تخلع

(*) الاعتقاد فى « كارما » وفى التناسخ هو أعظم عقبة من الوجهة النظرية تحول دون محو نظام الطبقات فى الهند ، لأن الهندى المتمسك بعقيدته يرى أن الفوارق الطبقية قد تقررت نتيجة لسلوك النفس فى حيواتها الماضية ، وأنها جزء من تدبير الله ، ومن الكفر أن تثير فيما دبر الله .

على الحزن والألم شيئاً من المعنى وقدراً من القيمة ؛ فللروح — بناء على اللاهوت الهندى — هذا العزاء على الأقل ، وهو أنها لابد لها أن تتحمل نتائج فعلها وحدها دون أفعال سواها ، فما لم تضجر الروح من الوجود كله جملة واحدة ، فستجد نفسها راضية عن الشر باعتباره عقاباً عابراً موقتاً ، وسترقب تحقيق آمالها فى ثوابها على ما أتت من فضيلة .

لكن الهنود فى حقيقة الأمر يرتابون فى قيمة الوجود كله جملة واحدة ، ذلك أنه لما كانت البيئة ترهق قواهم إرهاقاً ، ولما كان الحاكم يذل قوميتهم إذلالا ، ويستغل مواردهم استغلالا ، فقد مالوا إلى النظر إلى الحياة على أنها عقوبة مرة أكثر منها فرصة سانحة أو ثواباً يرتجى ؛ فكتب القيدا التى كتبها القوم وهم أشداء عند قدومهم من الشمال ، كانت فى تفاؤلها لا تقل عما يكتبه اليوم أديبنا « وِتْمَنْ » ؛ ومضت خمسمائة عام ، وظهر بوذا من هؤلاء القوم أنفسهم ، لكنه أنكر قيمة الحياة ؛ ثم مضت خمسة قرون أخرى ؛ وظهرت كتب « پيورانا » فعبرت عن نظرة بلغت فى تشاؤمها حداً لم يبلغه متشائم فى الغرب ، إذا استثنينا لحظات شروداً من الشك الفلسفى(*) ؛ لقد تعذر على الشرق — حتى تناولته أطراف الثورة الصناعية — أن يفهم هذه الحماسة التى يقبل بها الغرب على الحياة ، ولم يجد إلا سذاجة وطفولة فى مشاغلنا التى لا تعرف الرحمة ، ومطامعنا التى لا تقنع ، ووسائلنا التى تحطم الأعصاب وتوفر العمل ؛

(*) أرجع شوپنهور — مثل بوذا — كل آلام الحياة والنسل ، وبشر بانتحار الجنس كله انتحاراً تكون وسيلته العقم تصطنعه اختياراً ؛ كذلك « هبنى » لم يكد يكتب مقطوعة واحدة من شعره دون أن يتحدث فيها عن الموت ؛ واستطاع أن يكتب فى روح هندية هذين السطرين :

النعاس حلو ، لكن الموت أحلى ،
وأحلى من كل حلو ألا يولد الإنسان أبداً

وازدرى « كانت » نفاؤل ليبنتز ، وكتب متسائلا : « هل يمكن لأى إنسان سليم العقل عاش من أعوامه ما يكفى ليفهم ويتأمل فى قيمة الحياة البشرية ، هل يمكن لمثل هذا الإنسان أن يرضى أن تعاد عليه فصول الحياة فى روايتها الهزيلة ، لا أقول بنفس ظروفها التى شهدها هو فى حياته ، بل بأى ظروف يشاء ؟ »(٤٣) .

وتقدمنا وسرعة سيرنا ؛ لم يفهم الشرق من الغرب هذا الانغماس العميق فى سطوح الأشياء دون لبابها ، ولا هذا الرفض الماكر منه أن يواجه حقائق الوجود مواجهة صريحة ؛ لكن الغرب فى الوقت نفسه لم يستطع أن يسير فى الشرق التقليدى أغوار هذا السكون الهامد ، ولا هذا « الركود » و « اليأس » ؛ ألا إن الحرارة لا تفهم البرودة .

« ياما » يوجه السؤال إلى « يودشثيرا » قائلا : « ما أعجب شيء فى العالم »؟ فيجيبه « يودشثيرا » : « أن يموت الإنسان فى إثر الإنسان ، وأن يرى الناس ذلك ثم يظلون فى سعيهم كأنهم من الخالدين »(٤٤) وجاء فى « الماهابهاراتا » : « العـــالم مصاب بكارثة الموت ، ومقيد فى نشاطه بالشيخوخة ، والليالى متتابعات ، تأتى ثم تمضى ، لا تتخلف أبداً ، فإذا ما أيقنت أن الموت يستحيل عليه الوقوف ، فماذا أرتجى من السير تحت غطاء من الحكمة »(٤٥) ، وتدعو « سيتا » فى « رامايانا » لما رأت أن ثوابها على وفائها رغم ما يصادفها من إغراء ومحنة هو الموت ولا شيء غير الموت ، تدعو قائلة :

لو كنت بوفائى لزوجى قد برهنت على أنى زوجة أمينة ،

فيا أمنا الأرض أريحى ابنتك « سيتا » من أعباء هذه الحياة(٤٦) .

وهكذا ترى الكلمة الأخيرة فى التفكير الدينى عند الهنود هى ما يسمونه « فكشا » ومعناها الخلاص — الخلاص أولا من الشهوة ، ثم الخلاص من الحياة ، والنرڤانا هى هذا الخلاص أو ذاك ، لكنها لا تبلغ غاية أمدها إلا إذا تحقق الخلاصان معاً ، ولقد عبر الحكيم « بهارترى — هارى » عن الخلاص الأول فقال :

« إن كل شيء على الأرض يبرر الخوف ، والطريق الوحيدة للخلاص من الخوف هى فى إنكار الشهوات إنكاراً تاماً .. لقد مضى على عهد كانت تطول فيه أيامى حين كان سؤال الحسنة من الأغنياء يشخن فى قلبى أليم الجراح ، ثم بدت أيامى قصيرة كل القصر حين جعلت أسعى نحو تحقيق كل رغباتى وغاياتى

الدنيوية ، أما الآن فقد تفلسفت وجلست على حجر صلب فى كهف على سفح الجبل ، وترانى لا أنفك عن الضحك كلما فكرت فى حياتى الماضية »(٤٧) .

ويعبر غاندى عن الصورة الثانية من صورتى الخلاص فيقول :

« لست أريد عودة إلى ولادة جديدة »(٤٨) إن أسمى وآخر ما يتمناه الهندى هو أن ينجو من العودة إلى الحياة فى جسد آخر . وأن تزول عنه هذه الحمى التى تلتهب بها الذات كلما عاودتها الحياة فى بدن جديد وولاة جديدة ؛ وليس طريق الخلاص إيماناً ، كلا ولا نتاجا ، إنما طريق الخلاص إنكار للذات إنكاراً متصلا ، ونفاذ بالبصيرة إلى الكل الذى يبتلع فى جوفه الأجزاء ، حتى ينتهى الأمر بالنفس إلى الموت الذى يفنيها ولا يبقى منها ما يولد مرة أخرى ؛ وهكذا تتحول جحيم الفردية إلى سكينة الاتحاد مع سائر الوجود وفردوسه المقيم ؛ هكذا تتحول الفردية إلى فناء تام فى « براهما » الذى هو من العالم روحه أو قوته .

الفصل الرابع

غرائب الدين

الخرافات – التنجيم – عبادة العلاقة الجنسية –
الطقوس – الضحية – التطهير – المياه المقدسة

فى هذا الجو اللاهوتى المفعم بالخوف والألم ، ازدهرت الخرافة – وهى أول معونة ترسلها القوة الكامنة فوق الطبيعة لتعالج بها الأدواء الصغرى فى الحياة – ازدهاراً خصيباً ، حتى أصبحت القرابين ، والتمائم . وإخراج الشياطين الحالة فى الأبدان ، والتنجيم ، والنبوءة بالغيب ، والتعزيم ، والنذور ، وقراءة الكف ، والعرافة ، وطائفة الكهان التى بلغت ٢,٧٢٨,٨١٢ ، و « فاتحو البخت » الذين يبلغون المليون ، ومروضو الثعابين بالسحر وعددهم مائة ألف ، و « الفقراء » وهم مليون ، ومن يمارسون « اليوجا » وغيرهم من الأولياء – أصبح ذلك كله جانباً واحداً من الصورة التاريخية التى تمثل الهند ؛ فقد كان للهنود منذ ألف ومائتى عام عدد كبير من الكتب التى تشرح أصول التصوف والسحر والعرافة وتذكر الصيغ السحرية التى تهيئ السبيل لتحقيق أية غاية شئت ؛ وأما البراهمة فقد نظروا نظرة ازدراء صامت إلى هذه الديانة التى يملؤها السحر ، واحتملوا وجودها لأنهم من جهة خشوا أن تكون الخرافة بين عامة الناس عاملا ضروريا لصيانة قوة البراهمة أنفسهم ، ولأنهم من جهة أخرى ربما ظنوا أن الخرافة يستحيل فناؤها ، فإن ماتت إحدى صورها ، فما ذاك إلا لكى تعود إلى الوجود فى صورة أخرى ، وأحس البراهمة أن أقل الحكمة يقتضى ألا تقاوم مثل هذه القوة التى فى وسعها أن تجسد نفسها فى كل هذه الصورة .

اعتقد الهندى الساذج – كما يعتقد كثيرون من الأمريكان المثقفين – فى

التنجيم ، وسلموا تسليما بأن كل نجمة لها تأثير خاص على أولئك الذين ولدوا وهى فى أوجها(٥٠) ، فالنساء إبان الحيض كنّ — مثل أوفيليا — يتّقين ضوء الشمس ، فذلك قد يسبب لهن الحمل(٥١) ، وجاء كتاب « كاوشيتاكى يوبانشاد » أن سر النجاح المادى هو تقديس الهلال كلما ظهر ، وكان العرافون والسحرة والمنبئون بالغيب ، إذا ما أجرّتهم أجراً زهيداً ، يعلنون لك ماضى الحوادث ومُقبلها بدراستهم للأكف أو للبراز ، أو للأحلام ، أو لعلامات فى السماء ، أو للخروق التى أحدثتها الفئران فى الثياب ، ويزعمون بترتيلهم لعبارات السحر التى لم يكن ترتيلها فى مقدور أحد سواهم ، أنهم يخمدون الشياطين ويسحرون الثعابين ، ويستعبدون الطيور ، ويلزمون الآلهة أنفسهم بمعاونة من دفع لهم أجر ما يصنعون ، وكذلك كان السحرة نظير أجر معلوم سلطون الشيطان على العدو ، أو يطردونه من هذا الذى يؤجرهم ، كانوا ينزلون الموت المفاجىء على العدو أو يلحقوا به علة ليس لها شفاء ، حتى البراهمى إذا ما تثاءب ، جعل يفرقع بأصابعه ذات اليمين وذات الشمال حتى يطرد الأرواح الشريرة فلا يسمح لها بالدخول من فمه المفتوح(*) ، وكان الهندى فى شتى عصوره — مثل كثيرين من الفلاحين الأوروبيين — يتحوط من عين الحسد ، فأعداؤه قد يستخدمون السحر فى أية لحظة شاءوا لينزلوا به تعاسة الحظ أو ليقضوا على حياته ، ويستطيع الساحر فوق هذا كله أن يجدّد الحيوية الجنسية أو أن يخلق الحب فى أى إنسان لأى إنسان ، أو أن يهيئ سبيل الولادة للعاقرات من النساء(٥٢) .

لم يكن يعدل رغبة الهنود فى الأطفال شىء حتى النرفانا ، ومن ثم إلى حدما كانت رغبة الهندى الشديدة فى القوة الجنسية ، وكان تقديسه الدينى للرموز التى تشير إلى النسل والخصوبة ، فعبادة العلاقة الجنسية التى سادت

(*) وكذلك يتمتم الأوروبيون الأتقياء بعبارات يستنزلون بها البركة عقب العطاس ، والأصل فيها صيانة الروح حتى لا تخرج بقوة الرفير .

معظم الأقطار فى هذا العصر أو ذاك ، قد لبثت قائمة فى الهند من العصور القديمة إلى القرن العشرين ؛ وكان إلهها هو شيفا ، ورمزها هو عضو التذكير ، وكتابها المقدس هو « أجزاء من التانترا » (ومعناها كتب للنصوص) ؛ و « شاكتى » (ومعناها القوة التى تبعث النشاط) بالنسبة إلى شيفا هى — كما كانوا يتصورونها أحياناً — زوجته كالى ، وأحياناً أخرى يتصورون تلك القوة الباعثة شيفا على نشاطه الجنسى ، عنصراً تسوياً فى طبيعة شيفا نفسه ، وبهذا تكون طبيعته مشتملة على قوتى الذكورة والأنوثة فى آن معاً ؛ وهاتان القوتان يمثلهما الهنود بأوثان يطلقون عليها اسم « لنجا » أو « يونى » ، وهى تصور عضوى التناسل عند الرجل والمرأة[٥٣] وأينما سرت فى الهند ألفيت آثاراً لهذه العبادة للعلاقة الجنسية : تراها فى التماثيل الرمزية لأعضاء التناسل فى معبد نيالز ، وغيره من المعابد فى بنارس ، وتراها فى أوثان « اللنجا » الهائلة التى تزيّن أو تحيط بمعابد شيفا فى الجنوب ، وتراها فى المواكب والاحتفالات التى يرمزون بها إلى العملية الجنسية ؛ ثم تراها فى تمائم ترمز إلى تلك العلاقة الجنسية أيضاً ، ويلبسونها على الذراع أو حول العنق ؛ بل قد تصادف أحجار « اللنجا » ملقاة فى عرض الطريق ، ومن عادة الهنود أن يكسروا على هاتيك الأحجار جوز الهند الذى ينوون تقديمه فى قرابينهم[٥٤] ، وهم يغسلون حجر « اللنجا » فى معبد « رامشفارام » كل يوم بماء الكنج ، ثم يباع ذلك فيما بعد للمتدينين[٥٥] كما كان يباع الماء المقدس فى أوروبا ، وطقوس هذه العبادة الجنسية فى العادة تكون بسيطة وملتزمة حدود الاحتشام ، فقوامها أن يصب على الحجر ماء مقدس أو زيت مقدس ، ويزين بأوراق الشجر[٥٦].

ولا ريب فى أن الطبقات الدنيا من الهنود تستمد بعض المتعة الداعرة من مواكب العلاقة الجنسية[٥٧] لكن الكثرة الغالبة من الناس — فيما يظهر — لا يجدون حافزاً إلى الفاحشة فى « اللنجا » أو « اليورى » أكثر مما يجد المسيحيون

مثل هذا الحافز فى تأملهم للعذراء وهى ترضع طفلها ، إن العادة تزيل الفحش عن أى شىء ، والزمن يخلع القداسة على أى شىء ، ويظهر أن الناس قد نسوا الرمزية الجنسية فى هذه الأشياء منذ زمن طويل ، ولم تعد هذه الأوثان الآن إلا وسائل تقليدية مقدمة تمثل لهم قوة شيڤا(٥٨) ، ولعل الفرق بين تصور الأوروبى وتصور الهندى للأمر منشؤه الفارق بين سن الزواج فى أوروبا وسن الزواج فى الهند ، فالزواج المبكر ينفس عن تلك الدوافع الطبيعية التى إن طال أمد كبحها ، دارت على نفسها وأنتجت إما دعارة وإما حباً عذرياً ، وعلى وجه الجملة تجد الأخلاق والعادات الخاصة بالعلاقات الجنسية فى الهند أعلى منها فى أوروبا وأمريكا ، وهى هناك أكثر منها هنا احتشاماً وعفة بدرجة كبيرة ، وعبادة شيڤا هى من أكثر العبادات فى الهند تزمتاً وتقشفاً ، وأخلص عُبَّاد « اللنجا » عقيدةً هم « اللنجايات » ، وهم يمثلون أشد مذاهب الهند تزمتاً وطهراً(٥٩) ، يقول غاندى : « جاءنا أضيافنا الغربيون آخر الأمر يفتحون أعيننا لجوانب الفحش التى فى طقوسنا ، بعد أن كنا نمارسها حتى عهدهم ممارسة بريئة ، لقد عرفتُ لأول مرة أن « شيڤا لنجام » ترمز إلى فاحشة ، من كتاب لمبشّر مسيحى »(٦٠) .

إن استخدام الهنود « للّنجا » و« اليونى » ليس إلا صورة واحدة من ألوف الصور فى طقوسهم التى تبدو للعين العابرة الغربية عن البلاد ، لا مجرد صورة للديانة الهندية ، بل جزءاً أساسياً من صميم لبابها ؛ ذلك لأن كل فعل من أفعال الحياة ، حتى الغسل ولبس الثياب ، له عندهم طقوسه الدينية ، وفى كل دار يسكنها متدينون ترى آلهة خاصة بأهل تلك الدار ، تمثل لهم أشياء معينة كما ترى أسلافاً يضعونها موضع التكريم كل يوم ، والواقع أن الديانة للهندى واجب يؤدى فى الدار أكثر مما يؤدى فى مراسم المعابد التى يحتفظون بها لأيام الأعياد ؛ ومع ذلك فالناس يمرحون مرحاً عظيماً فى الأعياد الدينية الكثيرة التى تملأ السنة الكهنوتية ، فكانوا يسيرون مواكب عظيمة أو أفواجاً من

الحجاج ، قاصدين إلى الأضرحة القديمة ؛ ولم يكونوا ليفهموا ما يقال من عبارات الصلاة فى تلك المعابد ، لأنها كانت تقال بالسنسكريتية ، لكنهم كانوا يفهمون الأوثان ، فيزينونها بالحلى ويطلونها بالطلاء ويرصعونها بكريم الأحجار ؛ وكانوا أحياناً يعاملونها كأنها كائنات بشرية فيوقظونها ويغسلونها ويلبسونها الثياب ، ويطعمونها ويؤنبونها وينيمونها فى مخادعها عند خاتمة النهار(٦١) .

وأعظم الطقوس الجماعية هى تقديم القرابين ، وأعظم الطقوس الخاصة الفردية هى التطهير ، فالقربان عند الهندى ليس مجرد صورة خاوية ، لأنه يعتقد أنه إذا لم يقدمه للآلهة طعاماً تموت جوعاً (٦٢) ولما كان الإنسان فى مرحلة أكل اللحوم البشرية ، كانت القرابين فى الهند كما فى غيرها من بلاد العالم ضحية بشرية ؛ وكانت « كالى » تحب أن يكون قربانها رجالاً ، ثم فسر البراهمة هذا بأنها إنما تحب أن تأكل رجالا من أهل الطبقات الدنيا وحدها(٦٣)(**) فلما تقدمت الأخلاق أخذ الآلهة يكتفون بالحيوان قربانا ، فكان الناس يضحون لهم بكثير منه : على أن الماعز كان ذا منزلة خاصة فى هذه الاحتفالات ثم جاءت البوذية والجانتية و « أهمسا » فحرمت التضحية بالحيوان فى بلاد الهندستان(٦٧) ثم عادت العادة مجراها القديم حين حلت الديانة الهندية محل البوذية ؛ ولبثت قائمة على نطاق يثير الدهشة باتساعه ، حتى يومنا هذا ، وإنه لمن حسنات البراهمة أنهم رفضوا أن يسهموا بنصيب فى أية تضحية فيها إراقة للدماء(٦٨) .

وأما طقوس التطهير فقد كانت تستغرق من حياة الهندى ساعات كثيرة ؛ لأن مخاوف النجاسة كانت من الكثرة فى الديانة الهندية كما هى فى قواعد

(*) يسجل التاريخ هذه البرابن البشرية حتى سنة ١٨٥٤(٦٤) وكان المعتقد سابقاً أن المخلصين لدينهم كانوا يقدمون أنفسهم قرابين ، مثل الذى يروى عن المتوسين الدينيين الذين كانوا يلقون بأنفسهم تحت عجلات عربة « چجرنوت »(٦٥) ؛ لكن الرأى مجمع الآن على أن الحالات النادرة التى حدثت فيها التضحية بالنفس كانت على الأرجح من قبيل المصادفات(٦٦) .

الصحة الحديثة ؛ فما أكثر ما قد يصاب الهندى بما يردّه نجساً — إن أكل طعاماً حراماً ، وإن لمس قمامة أو مس إنساناً من طبقة الشودرا ، أو منبوذاً أو جثة أو امرأة فى فترة حيضها ، وغير ذلك مئات الحالات ؛ وبالطبع كانت المرأة نفسها ينجسها حيضها أو وضعها وليداً ؛ ولذا تطالب القانون البرهمى عزل المرأة فى مثل هذه الحالات ، واشترط تحوطات صحية معقدة(٦٩) وبعد كل هذه النجاسات — أو احتمال العدوى على حد تعبيرنا الحديث — كان من واجب الهندى أن يؤدى طقوساً تطهيرية معينة ؛ فأما الحالات الصغرى فتكفيها طقوس بسيطة كأن يرش من أصابته النجاسة بالماء المقدس(٧٠) وأما الحالات الكبرى فلا بد لها من طرائق معقدة تبلغ أقصى مداها فى بشاعة ما يسمونه « پانشاجاڤيا » وهو ضرب من التطهير كان يحكم به عقابا لمن انتهك قوانين الطبقات على خطورتها (مثال ذلك أن يغادر الهند) ويتألف ذلك التطهير من شُرْب مزيج فيه « خمسة عناصر » من البقرة المقدسة : اللبن ، والخثارة ، والسمن ، والبول ، والروث(٧١)(*) .

وأقرب من ذلك قليلا إلى ذوقنا ما يوجبه عليهم دينهم من استحمام كل يوم ؛ فهاهنا كذلك ترى تدبيراً صحياً تمس إليه الحاجة مساً شديداً فى مناخ شبه استوائى ؛ وترى هذا التدبير الصحى مصبوباً فى قالب من الدين حتى يكون أقوى تأثيراً فى النفوس ؛ ولهذا بنيت بركٌ وأحواض « مقدسة » ، وجعلت أنهاراً كثيرة أنهاراً مقدسة ، وقيل للقوم إنهم إذا استحموا فى هذه الأماكن تطهروا جسما وروحاً ؛ وقد كان ملايين الناس فى أيام الرحالة « يوان شوانج » يستحمون فى نهر الكنج كل صباح(٧٢) ، ومنذ ذلك العهد إلى يومنا لم تشهد تلك الأمواه شروقاً للشمس دون أن تسمع صلوات المستحمين الذين جاءوها

(*) السمن هو زبد مصفى ، ويقول « الأب دبوا » (١٨٢٠) عن البول « إنه فى نظرهم أفعل وسائل التطهير من أى ضرب من ضروب النجاسة ، فكثيراً ما شاهدت هنوداً ممن يؤمنون بالخرافة ، وهم يتبعون البقر إلى مرعاه ، ينتظرون اللحظة التى يستطيعون فيها الحصول على هذا السائل الثمين فى أوعية من نحاس أصفر ، ويسرعون به إلى دورهم وهو ما يزال دافئاً ، وكذلك شاهدتهم يرقبون أخذه فى حفنات أيديهم ، فيشربون بعضه ثم يمسحون وجوههم ورءوسهم ببقيته »(٧٢) .

سعياً وراء الطهر والخلاص ، يرفعون أذرعهم نحو السماء المقدسة ، ويصيحون فى نغمة الصابرين : « أوم ، أوم ، أوم » وأصبحت بنارس هى المدينة المقدسة للهند ، إذا باتت كعبة لملايين الحجاج ، يؤمها الشيوخ من الرجال والعجائز من النساء ، جاءوا من كل أرجاء البلاد ليستحموا فى النهر ، حتى يستقبلوا الموتى برآء من كل إثم أطهاراً من كل رجس ؛ إن الإنسان ليأخذه الخشوع ، بل يأخذه الفزع ، حين يتذكر أن أمثال هؤلاء الناس قد حجوا إلى بنارس مدى ألفى عام ، وغمسوا أنفسهم فى مياهها وهم يرتعشون من لذعة البرد فى فجر الشتاء ، وشموا بنفس متقززة لحم الموتى وهو يحترق ، فعلوا كل ذلك وهم يفوهون بنفس الدعوات التى كان يقينهم أن تجاب ، فعلوا ذلك قرناً بعد قرن ، وتوجهوا بالدعاء إلى نفس الآلهة التى لبثت على صمتها ، لكن عدم استجابة إله من الآلهة لا يحول دون تعلق القلوب به ؛ فلا تزال الهند تعتقد اليوم بنفس القوة التى كانت تعتقد بها فى أى عصر مضى فى الآلهة الذين لبثوا كل هذا الزمن ينظرون إلى فقرها وبؤسها فلا تأخذهم من أجلها رحمة .

الفصل الخامس

القديسون والزاهدون

أساليب التقديس – الزنادقة – التسامح – نظرة عامة فى ديانة الهنود

يظهر أن القديسين فى الهند أكثر منهم فى أى بلد آخر ، حتى ليشعر الزائر فى تلك البلاد أنهم نتاج طبيعى لها كالحشخاش والثعبان ، وللقداسة فى رأى المتدين الهندى ثلاث وسائل : الأولى طريق « چنانا – يوجا » أى طريق التأمل ، والثانية « كارما–يوجا » أىّ طريق العمل ، والثالثة « بهاكتى – يوجا » أى طريق الحب ؛ ولا يمانع البرهمىُّ فى أى من هذه الطرق الثلاث ، بما يقضى به قانون « الأَشْرامات » الأربع ، أى مراحل القداسة فعلى البرهمى الناشئ أن يبدأ الطريق بأن يكون « براهما شارى » يقسم على صيانته لعفته قبل زواجه ، وعلى أن يلتزم التقوى ويواصل الدرس ؛ وأن يكون صادقاً ، خدوماً « لشيخه » أى لأستاذه الذى يعلمه ، فإذا ما تزوج – ولا ينبغى أن يتأخر زواجه عن الثامنة عشرة من عمره – كان عليه أن يدخل المرحلة الثانية من الحياة البرهمية ، وهى مرحلة « جريها ستا » أى رب الأسرة ، التى ينسل فيها الأبناء ليعبدوه ويعنوا به وبأسلافه ؛ وفى المرحلة الثالثة (وقلما يمارسها الآن أحد) ينسحب الطامع فى القداسة مع زوجته ليعيش كـ « ڤانا پراستا » أى ساكن الغابات ، فيتقبل عُسْر الحياة مطمئناً راضياً ، ويحصر العلاقة الزوجية فى نسل الأطفال ، وأخيراً إذا أراد البرهمى أن يبلغ أعلى المراحل ، كان له فى شيخوخته أن يهجر حتى زوجته ، فيصبح « سانا ياسى » أى « الهاجر » للعالم ، مستغنياً عن كل أملاكه وكل أمواله وكل ما يربطه بغيره من علاقات ، فلا يحتفظ إلا بجلد وعل يغطى به جسده ، وعكازة يتوكأ عليها ، وقرعة ماء لظمئه ، ويجب عليه أن يلطخ جسده بالرماد كل يوم ، وأن يشرب « العناصر

الخمسة » مراراً متقاربة ، وأن يعيش معتمداً على صدقات المحسنين ، وتنص القاعدة البرهمية على أنه « لا بد أن ينظر إلى الناس جميعاً على أنهم سواسية ، فلا يتأثر بأى شيء مما يحدث ، وأن تكون له القدرة على النظر إلى الأشياء نظرة هادئة لا يعرف هدوءها معنى الاضطراب ، حتى إن بلغ الأمر حد الثورات التى تثل العروش ؛ وغايته الوحيدة ينبغى أن تكون حصوله على ذلك القدر من الحكمة ومن الروحانية الذى يمكّنه فى نهاية الأمر من الاتحاد بالربوبية العليا ، تلك الربوبية التى تفصلنا عنها شهواتنا العاطفية وبيئاتنا المادية(٧٤)(*) .

وإنك لتصادف أحياناً وسط هذا التدين صوتاً شكاكاً يرتفع كصرير النشاز فى نغمات الحياة الهندية التى تسودها استكانة التسليم ؛ لا شك أن الشكاك كانوا كثيرين حينما كانت الهند غنية ، لأن الإنسانية تزداد تشككاً فى آلهتها ازدياداً يبلغ أقصاه فى حالات ازدهارها المادى ، وتزداد لها تعبداً ازدياداً يبلغ غاية مداه حين يعمها البؤس ، وقد أسلفنا القول فى فئة « شارفاكا » وغيرهم من زنادقة العصر البوذى ؛ وهنالك مؤلّف يسارى فى قِدَمه ذلك العصر ، وهو يسمى — على طريقة الهنود فى تطويل الأسماء — « شواسامْفِديُوپانشاد » الذى يبسّط اللاهوت فى أربع قضايا :

(١) أن ليس هناك عودة للروح إلى تجسد جديد ، ولا إله ولا جنة ولا نار ولا عالم .

(٢) وأن كل الكتب الدينية التقليدية من تأليف جماعة من الحمقى المغرورين .

(*) ويضيف إلى ذلك « دبوا » الذى يرتاب فى كل شيء إلا فيما يعتقد هو فيه : « أن أغلب هؤلاء الزاهدين ينظر إليهم على أنهم نصابون ، وذلك هو ما يراه فيهم أكثر مواطنيهم تنوراً »(٧٥) .

(٣) وأن ما يحكم الأشياء كلها هو « الطبيعة » التى تبدع ، و« الزمان » الذى يهدم ؛ وهما لا يأبهان بفضيلة أو برذيلة حين يقسمون بين الناس أنصبتهم من السعادة والشقاء .

(٤) وأن الناس تخدعهم حلاوة الكلام فيعتنقون الاعتقاد فى الآلهة والمعابد والكهنة ، مع أنه فى الواقع لا فرق بين ڤشنو وكلب[٦٧] .

وهناك قانون بوذى مكتوب باللغة الباليّة ، تراه يضم المتناقضات ، شأنه فى ذلك شأن أى كتاب مقدس يحمى مصالح الكهنوت ، وفى هذا القانون رسالة تستوقف النظر لعلها قديمة قدم المسيحية ، وتسمى « أسئلة الملك ميلِنْدا » وفيها المعلم البوذى « نجاسينا » يجيب إجابات جد مثيرة للأسئلة الدينية التى يوجهها إليه « الملك ماندر » الإغريقى الباكترىّ الذى حكم شمالى الهند فى مستهل القرن الأول قبل المسيح ؛ يقول « نجاسينا » إن الدين لا ينبغى أن يتخذ مجرد وسيلة فرار يلوذ بها المعذبون ، بل يجب أن يكون سعى الزاهد حتى يبلغ مرحلة القداسة والحكمة دون أن يزعم وجود جنة أو إله ، لأن هذا القديس يؤكد لنا أنه لا وجود لجنة أو إله[٧٧] .

وتهاجم ملحمة « المهابهاراتا » هؤلاء الشكاك والملاحدة الذين — كما تزعم لنا — ينكرون حقيقة الأرواح ويحتقرون الخلود ، وهى تقول إن أمثال هؤلاء الناس « يضربون فى فجاج الأرض كلها » ؛ وهى تنذرهم بعقابهم المقبل ، ضاربة لهم مثلا ابن آوى الذى يعلل وجوده ووجود نوعه بقوله إنه كان فى حياته الماضية « باحثاً عقلياً ، وناقداً لكتب القيدا ... مهيناً للكهنة معارضاً لهم ... كافراً بكل شىء شكاكاً فى كل شىء »[٧٨] ، ويشير « بهاجاڤاد — جيتا » إلى الزنادقة الذين ينكرون وجود الله ويصفون الدنيا بأنها « لا تزيد عن كونها منزلا للشهوات »[٧٩] وكثيراً ما كان البراهمة أنفسهم شكاكين لكنهم كانوا يذهبون فى الشك إلى غاية مداه بحيث لا يسمحون لأنفسهم أن يهاجموا عقيدة الناس ؛ وعلى الرغم من أن شعراء الهند بصفة عامة يتميزون بالورع الشديد

نرى بعضهم ، مثل « كابر » و « ڤيمانا » يدافعون عن نوع من العقيدة فى الله متحلل من كثير جداً من القيود ، فقد كتب « ڤيمانا » – وهو شاعر ظهر فى جنوبى الهند فى القرن السابع عشر – بروح السخرية من الرهبان الزاهدين ومن حجاج المعابد ، ونظام الطبقات ، يقول :

« عزلة الكلب ، تأمل الكركىّ ، ترتيل الحمار ، استحمام الضفدعة » . . . كيف تكون أحسن حالا إذا لطخت جسمك بالرماد ؟ إنه ينبغى أن تركز فكرك فى الله وحده ، أما عن بقية ما تصنعه ، فالحمار فى وسعه أن يتمرغ فى الوسخ كما تفعل . . . إن كتب « الڤيدا » أشبه ما تكون بالفاجرات اللائى يخدعن الرجال وليس لهن أغوار تُسْبَر ؛ وأما علم الله الخبىء فهو شبيه بالزوجة الشريفة . . . أيمكن لتلطيخ الجسم بالرماد الأبيض أن يذهب برائحة وعاء الخمر ؟ أيمكن لحبل تلفه حول عنقك أن يجعل منك إنساناً آخر ؟ . . . لماذا ترى واجباً علينا أن نسىء إلى طبقة الپاريا إساءة لا تنقطع ؟ أليس المنبوذ مثلنا فى لحمه ودمه ؟ ومن أى طبقة عسى أن يكون الإله الذى يحلّ جسد الپاريا ؟ . . . إن من يقول « إنى لا أعلم شيئاً » هو أبلغ الناس حكمة »(٨٠) .

وإنه لمما يجدر ملاحظته فى هذا الصدد أن تذاع أقوال كهذه بغير مؤاخذة قائليها ، فى مجتمع تتحكم فى عقوله طبقة من الكهان ، فلو استثنينا كبح الحكم الأجنبى للهنود (بل ربما جاز أن نقول إنه بسبب وجود الحكام الأجانب الذين لم يكونوا يأبهون للعقائد الدينية الأهلية) فقد تمتعت الهند بقدر من حرية الفكر أعظم جداً مما تمتعت به أوروبا فى عصورها الوسطى ، وهى الفترة التى تقابلها مدنية الهند ، ولقد باشر البراهمة نفوذهم فى تدبر ورفق ، وكان اعتمادهم فى صيانة العقيدة الأصلية على الفقراء وما يتصفون به من جمود على القديم ، وكان هؤلاء الفقراء فى ذلك عند حسن ظن البراهمة بهم ، فإذا ما شاعت فى الناس ضروب من الزندقة أو الآلهة الغريبة شيوعاً يعد خطراً على العقيدة ، تسامح البراهمة إزاءها حتى يمتصوها امتصاصاً فى ذلك الغور

obeikandl.com